من دلالات الشعر النسوي الأندلسي في أخبار الشاعرتين: حسانة التميمية وعائشة القرطبية

أ. د. مجد ياسر الملاح

مقدمة حول أهداف البحث:

لا شك في أن ولادة بنت المستكفي هي أشهر شاعرات الأندلس، وهي الشاعرة التي يعرفها المثقفون والملمون بالأدب العربي وكذلك بشاعره المشهور ابن زيدون. وعلى الرغم من أن موضوع شاعرات الأندلس قد دُرس من قبل على أيدي عدد من الباحثين أمثال الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، والأستاذ محمد المنتصر الريسوني في كتابه: "الشعر النسوي في الأندلس"، و الدكتورة مارلي هاموند في كتابها عن الشعر النسوي في الأدب العربي القديم، فإن مجال البحث ما زال مفتوحاً، وهناك الكثير من الجوانب التي تحتاج إلى دراسة مستفيضة. ويهدف البحث الحالي إلى دراسة طريقة عرض شاعرات الأندلس في ما يمكن تسميته "المرحلة الأولى" من شاعرات الأندلس، وهي مرحلة تمتد من عصر الإمارة إلى نهاية العصر الذهبي بعد وفاة المظفر بن المنصور بن أبي عامر، وهي فترة طويلة جداً من الناحية الزمنية إذ تبلغ حوالي قرنين ونصف. وسأركز، في هذه الدراسة، على طريقة عرض شاعرات الأندلس في هذه الفترة كما بسطها كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقّري لأنه المصدر الأساسي والشامل للشاعرات المعروفات في الأندلس جميعاً. ولا شك في أن المقّري له فضل كبير في حفظ أشعار هؤلاء الشاعرات وأخبارهن، على الرغم من شح الأمثلة الشعرية وقلة ما حُفظ؛ وقد يستغرب الدارس أن مجمل شعر ولادة لا يزيد عن عدد قليل من الأبيات المتفرقة والقطع القصيرة جداً. أما الشاعرة عائشة القرطبية المذكورة في عنوان البحث، فإن لها بعض الأبيات المتفرقة وقطعة شعرية واحدة حفظت كلها، وتتألف من عدد قليل من الأبيات الشعرية لا تتجاوز سبعة فقط. وقد نتساءل هنا: لماذا لم يُحفظ عدد أكبر من القطع الشعرية للمرأة في الأندلس؟ وهوأمر طرحه الأستاذ محمد المنتصر الريسوني في كتابه عن الشعر النسوي في الأندلس. ولن يتطرق البحث الحالي إلى الإجابة عن هذا السؤال لصعوبته وعدم جدوى إثارته هنا، ولكنه سيركز على ما سميته "المرحلة الأولى" لشعر النساء في الأندلس حيث سيعالج الأخبار والأشعار كما حفظها المقري لاستنتاج المعاني الكامنة وراء هذه الأخبار والأشعار وتحليلها وفهمها للوقوف على الجوانب السياسية والثقافية المرتبطة بها، كما أنه سيتطرق إلى الظروف الثقافية والسياسية التي كانت تمر بها الأندلس، وبخاصة في فترات ظهور هاتين الشاعرتين: حسّانة التميمية وعائشة القرطبية. إذاً، فإن هذا البحث سيتجه إلى تحليل الأخبار والأشعار المحفوظة لحسانة وعائشة في سياق الفترات السياسية التي دُونت فيها (فترة الإمارة الأموية وفترة عصر الدولة العامرية) ومدى ارتباطها بهذه الفترات السياسية المذكورة وأثرها في فهم ما حُفظ من القطع الشعرية للشاعرتين المذكورتين وتحليلها. إن من اللافت للنظر أن التراث لا يدون أي شاعرات أندلسيات في العصر الذهبي لفترة الخلافة، أي بشكل خاص فترة خلافة عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم، على سبيل المثال، أوفي فترة دولة بني الأحمر في غرناطة. ولقد رَكز البحث على حسانة التميمية وعائشة القرطبية باعتبارهما نموذجين لقلة الشعر المحفوظ، ولأنهما، في الوقت نفسه، يمثلان بداية حفظ الشعر النسوي وانطلاقته في فترتي الإمارة والدولة العامرية.

نبذة تاريخية عن شاعرات العرب في المشرق والأندلس:

إن الحديث عن شعر المرأة في الأدب العربي القديم لا بد أن يبدأ بالشعر الجاهلي، وبخاصة الشاعرة المخضرمة الخنساء، لأن النقاد القدماء للأدب العربي يعتبرونها من أهم شاعرات الأدب العربي في موضوع الرثاء. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الخنساء ليست

الوحيدة من العصر الجاهلي، وإنما هناك عدد جيد من شاعرات العصر الجاهلي يركز شعرهن على الرثاء والتحريض على الثأر. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى فصل كامل في كتاب الأستاذة الدكتورة سوزان ستيتكيفيش عن الأدب الجاهلي إذ يسلط الضوء على شاعرات العرب في العصر الجاهلي ويحلل مجموعة من القطع الشعرية التي تركز على موضوع الرثاء والتحريض على الثأر. ومن الناحية التاريخية تأتي بعد الخنساء الشاعرة المشهورة ليلى الأخيلية في العصر الأموي، وتعتبر هذه الشاعرة أيضاً مبدعة في مجال الرثاء مع أنها تختلف عن الخنساء في أنها رثت حبيبها الشاعر توبة، وليس أحد أفراد أسرتها كما كان الحال مع الخنساء. وليلى الأخيلية من الشاعرات المتميزات ومن القليلات اللواتي يحفظ التراث العربي القديم ديواناً كاملاً لهن. وهي أيضاً تمتاز بتنوع الأغراض التي طرقتها في ديوانها، فهي مشهورة بقصة حب عذرية مع الشاعر توبة، وهناك عدد من الأمثلة في ديوانها تمثل رثاءها لتوبة، ولكن الديوان يحتوي على عدد من القصائد تمثل أغراضاً أخرى منها قصيدة مدح للخليفة الأموي. وتمتاز ليلى الأخيلية بطول النفس الشعري، فعدد من قصائدها تعتبر قصائد بالمعنى التقليدي، أي تصل إلى عشرات الأبيات، وهي أيضاً متميزة لأن نقاد التراث القدماء أمثال الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء" يذكرها ويفضلها على الخنساء، ويذكر الأصمعي وابن قتيبة خبراً عن مبارزة شعرية بينها وبين النابغة الجعدي. ومن المثير للانتباه أن المؤلفين يرجحان كِفة ليلى الأخيلية في تلك المبارزة (انظر قائمة المراجع والمصادر:ابن قتيبة، ليلى الأخيلية، الأصمعي، الخنساء، هاموند، ستيتكيفيش).

أما العصر العباسي فهويتصف باستمرارية الشعر النسوي، غير أننا لا نجد أمثلة لشاعرات كالخنساء وليلى الأخيلية من ناحية وجود ديوان كامل وكم كبير من الأخبار. ويمكننا القول: إن أهم شاعرات العصر العباسي وأشهرهن هي الشاعرة علية بنت الخليفة المهدي. وكان شعرها يشمل الكثير من الأغراض الشعرية كالمديح والغزل وغيرهما. (انظر قائمة المراجع والمصادر).

أما شاعرات الأندلس فيذكر التراث العربي منهن مجموعة تبدأ تاريخيا من فترة الإمارة الأموية؛ فصاحب الذخيرة على سبيل المثال يخصص قسماً كاملاً للحديث عن شاعرة الأندلس ولادة بنت المستكفي، وصاحب نفح الطيب يدون فصلا خاصا وموضوعاً مفصلاً عن شاعرات الأندلس ويذكر فيه مجموعة كبيرة من الشاعرات حيث وصل عددهن إلى ٢٤ شاعرة أندلسية. وعلى الرغم من أن الكاتب لم يرتب الشاعرات بطريقة تاريخية، ولم يتطرق إلى موضوعات أخرى وأخبار متفرقة في هذا القسم فإننا يجب علينا أن نقدر تصوره في جمع الشعر النسوي في "قسم واحد" ومعالجته له معالجة موضوع واحد في حد ذاته. ويجمع المؤلف قدراً جيداً من القطع الشعرية والأبيات المتفرقة للشاعرات المذكورات في هذا القسم، ولكن هذه الأمثلة الشعرية بعامة تعتبر محدودة. ويمكن القول: إن حمدونة بنت زياد (من غرناطة)، وولادة بنت المستكفي (من قرطبة)، وبثينة بنت المعتمد (من إشبيلية)، وحفصة الركونية (من غرناطة) هن أهم شاعرات الأندلس. أما أهمية حسانة التميمية وعائشة القرطبية فتتمثل في أنهما تمثلان، إلى حد ما، بدايات الشعر النسوي الأندلسي، ويجب علينا، كخطوة أولى لفهم شعر المرأة في الأدب الأندلسي، دراسة القطع المحفوظة لهما من غرض المديح، لأنه شيء مثير للاهتمام.

حسانة التميمية وبدايات شعر المرأة في الأندلس:

تعتبر حسانة التميمية أول شاعرة أندلسية المولد حيث نشأت وعاشت في إلبيرة. وهي أيضاً أول شاعرة أندلسية من الحرائر، وتسبقها من الناحية التاريخية شاعرة من القيان جاءت إلى الأندلس من المشرق وتعرف باسم "العجفاء" ، ويذكرها المقري في قسم عن الوافدين إلى الأندلس في الجزء الثالث من "نفح الطيب" (صفحة ١٤١ – ١٤٢)، وقد أشار إلى هذا الترتيب الزمني الدكتور الشكعة في كتابه عن الأدب الأندلسي (صفحة ١١٧). ومع أن هذا البحث لن يتطرق إلى دراسة شعر العجفاء بشكل مطول فإنه لا بد من الإشارة إليها وإلى أنها كانت جارية لرجل اسمه مسلم بن يحيى إلى أن "ابتيعت" لعبد الرحمن الداخل و"حُملت إليه" (المقري، ج ٣، صفحة ١٤٢). ولا شك هنا في أن ربط خبر العجفاء بمؤسس الدولة الأموية الوليدة له دلالة رمزية حيث يظهر عبد الرحمن الداخل على أنه منقذ هذه الجارية "العجفاء" تماماً كما أنقذ الأندلس من براثن التفكك والضعف السياسي. وسأشير إلى هذا الخبر بين

العجفاء وعبد الرحمن لأن الربط بين شاعرتنا الأندلسية الحرة حسانة التميمية وبين وارثي عبد الرحمن الداخل يصبح محورياً وأساسياً لفهم أهمية هذه الشاعرة الدلالية وبخاصة أنها أولى شاعرات الأندلس الحرائر. وسنبدأ هنا برواية الخبر مع الأبيات الشعرية كما حفظها التراث في "نفح الطيب". يقول المقري عن حسانة التميمية:

"تأدبت وتعلمت الشعر، فلما مات أبوها كتبت إلى الحَكَم، وهي إذ ذاك بكر لم تتزوج:

إني إليك أبا العاصي موجعة
أبا المخشى سقته الواكف الديمُ
قد كنتُ أرتعُ في نعماهُ عاكفةً
فاليومَ آوي إلى نعماك يا حكمُ
أنت الإمام الذي انقاد الأنامُ لهُ
وملكتهُ مقاليدَ النهى الأممُ
لا شيء أخشى إذا كنتَ لي كنفاً
آوي إليه ولا يعروني العدمُ
لا زلتَ بالعزة القعساء مرتدياً
حتى تذل إليك العُربُ والعجمُ

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه، وأمر لها بإجراء مرتب، وكتب إلى عامله على إلبيرة فجهزها بجهاز حسن.

ويُحكى أنها وفدت على ابنه عبد الرحمن تشكوعامله جابر بن لبيد والي إلبيرة، وكان الحكم قد وقع لها بخط يده تحرير أملاكها، وحملها في ذلك على البر والإكرام، فتوسلت إلى جابر بخط الحكم، فلم يُفدها، فدخلت إلى الإمام عبد الرحمن، فأقامت بفنائه، وتلطفت مع بعض نسائه، حتى أوصلتها إليه، وهوفي حال طرب وسرور، فانتسبت إليه فعرفها وعرف أباها، ثم أنشدته:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي
على شحط تصلى بنار الهواجرِ
ليجبر صدعي إنه خيرُ جابرٍ
ويمنعني من ذي الظلامة جابرِ
فإني وأيتامي بقبضة كفه
كذي ريش أضحى في مخالب كاسرِ
جديرٌ لمثلي أن يقال مروءة
لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاه الحيا لوكان حياً لما اعتدى
علي زمانٌ باطشٌ بطشَ قادرِ
أيمحوالذي خطته يمناه جابرٌ
لقد سامَ بالأملاك إحدى الكبائرِ

ولما فرغت رفعت إليه خط والده، وحكت جميعَ أمرها، فرق لها، وأخذ خط أبيه فقبله ووضعه على عينيه، وقال: تعدى ابنُ لبيد طوره، حين رام نقض رأي الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده، ونحفظ بعد موته عهده، انصرفي يا حسانة، فقد عزلته لكِ، ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم، فقبلت يده، وأمر لها بجائزة، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها:

ابن الهشامين خير الناس مأثرةً
وخير منتجع يوماً لروادِ
إن هز يومَ الوغى أثناء صعدته
روّى أنابيبها من صرف فرصادِ
قلْ للإمام أيا خيرَ الورى نسباً
مقابلاً بينَ آباء وأجدادِ
جوّدتَ طبعي ولم ترض الظلامةَ لي
فهاكَ فضلَ ثناء رائح غادِ
فإن أقمتُ ففي نعماكَ عاطفةٌ
وإن رحلتُ فقد زوّدتني زادي"

("نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"،الجزء الرابع، صفحة ١٦٧-١٦٨).

ويتطرق الدكتور مصطفى الشكعة إلى حسّانة التميمية في كتابه "الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه"، فهويقول في مستهل حديثه عن شعر المرأة في الأندلس:

"هذا ونستطيع أن نقرر أن المرأة الشاعرة كلما كانت قريبة العهد بزمان الفتح كانت أقرب إلى عروبتها، وبالتالي إلى حشمتها والارتباط بأسباب التحرز في القول والتردد في الجرأة والابتعاد عن الإسفاف وتجنب الإفحاش، وكلما بعد العهد بها انغمست في صلب "الأندلسية" كانت أقرب إلى التحرر الذي هوفي حقيقته—من ناحية القول على أضعف الإيمان—تحلل أكثر منه تحررا" (صفحة ١١٨).

ثم يزيد عن شعر حسّانة بخاصة، فيقول: "وفي مسار نظرتنا إلى الشعر الأندلسي الباكر لا نكاد نحس فارقاً بينه وبين شعر المشرق، هذا من ناحية مطلق الشعر، وأما من ناحية كونه شعرا نسائيا ... نستطيع أن نحكم بتماسكه انبعاثا من تماسك المرأة الأندلسية في العهود الأولى من الفتح، ذلك أنها لم تكن قد انغمست بعد في الترف المادي والتردي الاجتماعي الذي تردت فيه المرأة الأندلسية" (صفحة ١٢٢). ويضيف الدكتور الشكعة ما يأتي عن حسانة: "وهي بعد ذلك ليس فيها من "الأندلسية" شيء، لأن الوقت كان ما زال باكراً، وكان الشعر صورة لقرينه في المشرق وامتداداً له معنى وموضوعاً وأسلوباً" (صفحة ١٢٥).

ولا يمكن، لأي دارس، أن ينكر فضل الدكتور الشكعة، فهو، في عصرنا الحديث، من أوائل الدارسين الذين

خصصوا قسماً كاملاً لدراسة شعر المرأة في الأدب الأندلسي وتحليله. وهوأيضاً من قام بجهد كبير لترتيب شعر النساء في الأدب الأندلسي تاريخياً بعكس الطريقة العشوائية التي اتبعها المقري. ولكنني سأختلف قليلاً مع الدكتور الشكعة في تحليل القطع الشعرية والأخبار المرتبطة بها، وهذا الاختلاف ليس اختلافاً في الرأي، وإنما هواختلاف في التوجه والمنهج التحليلي. فإذا نظرنا إلى الشعر النسوي في المشرق في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، فإننا نلاحظ أن الرثاء هوالغرض الطاغي على شعر المرأة مع بعض التباين بالطبع، ولكن ما يلفت الانتباه في حالة حسّانة التميمية، وهي تمثل بدايات الشعر النسوي في الأندلس، فهوغرض المديح بشكل خاص. والهدف هنا أن نبتعد عن التركيز على أنها "مشرقية متماسكة في شعرها" لأن الأوْلى هوالتركيز على أبعاد رسم صورتها وشعرها وعلاقتها بالدولة الأموية وهوما سيضيفه البحث الحالي.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن هذا، على حد علمي، هوكل ما حفظ لنا عن حسانة التميمية نفسها. ويذكر الدكتور إحسان عباس في كتابه "تاريخ الأدب الأندلسي:عصر سيادة قرطبة" أن والدها كان شاعراً معروفاً أيضاً واسمه أبوالمخشي عاصم بن زيد (صفحة ٤١). وهي إذاً شاعرة عربية أصيلة والدلالة على ذلك تسميتها المعروفة بها، وهي "التميمية"، أي من بني تميم. وقد تبدوهذه المعلومة شيئاً هامشياً، ولكن المُلم بتاريخ الأندلس والتعقيدات السياسية منذ بداية الفتح وحتى ترسيخ الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل يدرك أهمية هذه المعلومة. فالتراث إذاً، من خلال التركيز على عروبة حسانة مقارنة بالعجفاء من قبلها، يصور مفصلية الدولة الأموية وأهميتها في حماية وافدة فقيرة على يد عبد الرحمن الداخل، ولكن لترسيخ هذه الصورة، تقوم قصة حسانة بتدعيم هذه الصورة وتأكيدها كما سنرى عند تحليل الخبر والشعر.

يُدون هذا الخبر قصة حسانة التميمية ويصورها على أنها امرأة ضعيفة من ناحية وقوية في الوقت نفسه من ناحية أخرى. أما الضعف فمصدره ليس ضعفاً "أنثوياً"، وإنما هوضعف مصدره الفقر وقلة الحال. والدليل على ذلك أن الخبر يذكر أن حسانة بعثت بشعر للحكم بن هشام (المتوفى سنة ٢٠٦ هجرية/٨٢٢ ميلادية) بعد وفاة والدها ومعيلها. ويركز الخبر على أنها لم تكن متزوجة، وأن الحكم استحسن شعرها وأمر لها براتب وبترتيب الجهاز لها حتى تتزوج. أما مصدر قوتها فهوشعرها وقدرتها اللغوية والكلامية. فالقطعة الشعرية الأولى التي استحسنها الحكم هي عبارة عن مزيج من الرثاء والمديح في الوقت نفسه حيث تستنجد شاعرتنا بالحكم، وتعلن في الوقت نفسه ولاءها له، واعتمادها عليه، بعد وفاة والدها. والجدير بالإشارة هنا أن حسّانة تستنجد ولا تستجدي، فهي تبعث بقطعة شعرية لها قوة مستمدة من قوة الكلمة في مجتمع عربي يقدر الشعر والشعراء كما أشرت في دراساتي السابقة (انظر: مجد الملاح في قائمة المراجع بالإنجليزية). أما الأمير الحكم فهوأيضاً يقدر الشعر وأثره، فهونفسه شاعر قدير، وهوأيضاً سياسي يدرك أهمية الشعر في ترسيخ دولة الأمويين في الأندلس، وكذلك، وهوالأهم في رأيي، إرثهم الثقافي والتاريخي على المدى البعيد. وهذا كله يصب في ميزان الدولة الأموية وأثرها في ترسيخ إمارة مبنية على أسس الثقافة العربية العريقة التي تقدر الشعر والشعراء والأدب والأدباء. وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية الحكم بن هشام في ترسيخ قواعد الدولة الأموية في الأندلس بعد والده هشام وجده من قبله عبد الرحمن الداخل. وهومعروف بقسوته في التعامل مع انقلابَيْن ضد حكمه في قرطبة، فقد قام بإعدام المتورطين في الانقلاب الأول، أما الثاني فقد قام جيشه بقتل عشوائي للثائرين (انظر Hitchcock صفحة ٤٩). ويضيف هيتشكوك أن تصرف الحكم كان متلائماً مع السياسة الأموية في التعامل بكل قسوة مع المعارضين وإغداق كل أشكال الكرم على المؤيدين (صفحة ٤٩)، وعليه فإن الكرم الذي أبداه الحكم في التعامل مع حسانة التميمية لا يمكن أن نعتبرة مِنّة عليها، وإنما هوتصرف سياسي محنك، وتصرف رجل يقدر الشعر وأثره على المدى الآني والبعيد أيضاً.

أما الجزء الثاني من الخبر فهويشمل استكمالاً وتأكيداً على أن سياسة الأمويين لم تكن مقتصرة على الحَكَم، وإنما هي تستمر مع استمرار حُكمِهم في عهد ابنه عبد الرحمن الثاني، والمعروف بالأوسط (المتوفى سنة ٢٣٨ هجرية/٨٥٢ ميلادية). ونلاحظ هنا أيضاً أن حسانة تستنجد بعبد الرحمن الثاني لاسترداد حقها من والي إلبيرة. ونلاحظ هنا أن مصدر قوة حسّانة هوشعرها المؤثر فهي تلقي قطعة شعرية لعبد الرحمن تتشكى فيها موت والده الحكم (أبوالعاصي) لأن موته أدى إلى هذا الضير من والي إلبيرة.

وهي إشارة محنكة تقوم فيها شاعرتنا باستنكار ما فعله الوالي، وفي الوقت نفسه هي تتساءل إن كان وعد الأمير الأموي الحَكَم ينتهي بموته. وتأتي إجابة الأمير عبد الرحمن بكل وضوح: " تعدى ابنُ لبيد طوره، حين رام نقض رأي الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده، ونحفظ بعد موته عهده." ويقوم عبد الرحمن بعزل الوالي وتأكيد حق حسانة في ممتلكاتها وفي عهد والده لها. وعليه فإن هذا الخبر عن حسانة هوعبارة عن تأكيد لأحقية الأمويين في إدارة الأندلس وحكمها لقدرتهم على حماية الحقوق ورد الظلم إذا وقع حتى لوتطلب الأمر عزل والٍ سياسي. ثم ينتهي الخبر بقطعة شعرية تبعث بها حسانة إلى عبد الرحمن، وتقوم فيها بتأكيد أحقية عبد الرحمن بالحكم، وهي أحقية مستمدة من نسبه الأموي بخاصة، ومن كرمه معها وإعطائها حقها كاملا.

وهكذا يمكننا الاستنتاج من مثال العجفاء وحسانة بشكل أكثر وضوحاً أن بداية الشعر النسوي مرتبط ببداية الدولة الأموية في الأندلس وترسيخ وجودها وسلطانها فيها. وهناك دلالات رمزية يمكننا استنتاجها من قصة حسانة واستنجادها بالأمويين، ويبدوأن الإبن (عبد الرحمن) يحفظ عهد الوالد (الحكم)، وهوما ينبئ بمصداقية الأمويين في حكم الأندلس وأحقيتهم في ذلك. وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن حسانة هي من تمثل من الناحية الواقعية والرمزية "أندلسية" هذه الشاعرة من الناحية السياسية والثقافية. فقصتها تؤكد استقلال الدولة الأموية في الأندلس واستتباب أمرها، وتوجهها لبسط سلطتها من الناحية السياسية والثقافية. فالحَكَم وعبد الرحمن، بخاصة، لهما فضل كبير في تشجيع استقلالية الأندلس وتدعيم هذه الاستقلالية والسعي إلى تشجيع الشعراء والأدباء وأهل الفن إلى الهجرة نحوالأندلس والاستقرار فيها. ويمكننا الإشارة إلى هجرة زرياب الموسيقي المشهور وقدومه إلى الأندلس على سبيل المثال وإلى الكثيرين غيره.

عائشة القرطبية ونهاية عصر الاستقرار السياسي:

أما عائشة القرطبية فهي ثانية شاعرة أندلسية حرة من الناحية التاريخية. فلا يذكر المقري

أوغيره شاعرات أندلسيات في فترة الخلافة، فهناك فترة لا تقل عن ١٥٠ سنة لا تذكر فيها أي شاعرة، وهوأمر محير فعلاً. وقد دوَّن المقري القليل عن عائشة في الجزء الخاص بشاعرات الأندلس فيقول عنها:

"قال ابن حيان في المقتبس: لم يك في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً وأدباً وشعراً وفصاحة، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وماتت عذراء لم تُنكح سنة أربعمائة.

وقال في المغرب: إنها من عجائب زمانها، وغرائب أوانها، وأبوعبد الله الطبيب عمها، ولوقيل "إنها أشعر منه" لجاز، ودخلت على المظفر بن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولد، فارتجلت:

أراك الله فيه ما تـريـدُ
ولا برحت معـاليه تـزيـدُ
فقد دلت مخايله علـى مـا
تـؤملـهُ وطـالعهُ السعيـدُ
تشوقتِ الجيادُ لهُ وهُزالـ
حسامُ هوى وأشرقتِ البنودُ
فسوفَ تراهُ بدراً في سماء
من العَليا كواكبـه الجنودُ
وكيفَ يخيبُ شبلٌ قد نمتهُ
إلى العَليا ضراغمةٌ أسـودُ
فأنتـم آل عـامر خيرُ آلٍ
زكا الأبناءُ منكم والجـدودُ
وليـدكُمُ لدى رأيٍ كشيخ
وشيخكمُ لدى حـربٍ وليدُ"

(الجزء الرابع، صفحة ٢٩٠)

ولم يُحفظ الكثير عن عائشة القرطبية مع أننا نعرف بعض المعلومات التي قد تدلنا إلى بعض الاستنتاجات والتحليلات. وسأتبع هنا الأسلوب نفسه الذي اتبعته في تحليل خبر حسانة وشعرها وهوالاعتماد على ربط الخبر والشعر بالحالة السياسية في زمن إنتاج القطعة ثم البعد الثقافي بعيد المدى الذي ساهم في حفظ هذا المثال دون غيره.

والآن نبدأ من الخبر عن عائشة، ونشير هنا إلى أهمية اسمها المرتبط بقرطبة عاصمة العصر الذهبي للحكم العربي والإسلامي في الأندلس، وهويدل كذلك على استقرار أكثر للشخصية والهوية الأندلسية. وعلى الرغم من أن حسانة التميمية ساهمت في "تدعيم" هذه الهوية الأندلسية من تأكيدها على أهمية دور الأمويين في هذا الشأن فإن اسمها كان ما زال في تلك الفترة أقرب إلى القبلية والأصول والنسب المشرقي. وهذا التغير ملاحظ عند عائشة وعند غيرها من الشاعرات الأندلسيات بعدها، وعليه يمكن

القول: إن أهمية عائشة مستمدة من ظهور أوضح لشخصية أندلسية مرتبطة بالمكان. وعلى الرغم من أننا لا نعرف الكثير عن عائشة فإن المقري يربطها مباشرة مع مسقط رأسها، أي قرطبة، وهذا الربط يستدعي للذاكرة عصراً ذهبياً من الناحية السياسية والثقافية. وفي الحقيقة فإن مدح عائشة، للمظفر بخاصة، وهوالذي يمثل نهاية العصر الذهبي في الأندلس ونهاية الاستقرار السياسي، له دلالة مهمة سنقوم باستكشافها في السطور الآتية.

فالخبر يبدأ بذكر أهميتها لأنها شاعرة لا يعدلها من الحرائر أحد، وهي التي "تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة." والمفاجأة هنا أنه لم يُحفظ من شعرها سوى قطعة واحدة!؟! فأين "ملوك الأندلس" في شعرها، والتراث يؤكد أهميتها؟ ولكن تبقى أمامنا قطعة شعرية واحدة فقط للحكم على شعرها ودلالاته، وهذا يدلنا إلى مفارقة في الأهمية وقلة المعلومات ثم مفارقة أخرى عندما نقرأ القطعة في مديح المظفر.

فشاعرتنا تمدح ولداً له حيث تؤكد على قدرته العسكرية وتوق الجياد له في ساحة الحرب، ثم تمدح آل عامر بعامة ونسبهم وقدرتهم على الحكم. وتكتمل المفارقات عندما نشير إلى ما آل إليه حال الأندلس بعد وفاة المظفر وتولي أخيه عبد الرحمن الحجابة من بعده. لم يتول ذلك المولود المؤمل فيه من خلال قطعة عائشة، بل جاء عبد الرحمن سانشول الذي أثبت عدم قدرته على تسيير الأمور في الأندلس والذي اندلعت الفتنة في فترته لبعض سياساته غير الحكيمة. والمفارقة الأخيرة في هذه القصة أن عائشة توفيت في السنة نفسها التي بدأت فيها الفتنة والفترة نفسها التي انحدرت فيها الحالة السياسية في الأندلس. وهكذا يمكن القول: إن خبر عائشة والقطعة الشعرية يؤكدان الشخصية الأندلسية وترسخها في ذلك الوقت، ولكن هنا نرى المفارقة الكبرى وهي أنهما أيضاً يبدوان وكأنهما ينذران بما سيأتي من حزن وبؤس على الأندلس بعد وفاة المظفر.

الخاتمة:

أما بعد، فإنه يتبين لنا أن هناك القليل مما حفظه التراث العربي في ما يتعلق ببدايات شعر المرأة في الأندلس. وقد يبدوأن هذا الشعر مشابه للشعر المشرقي في بداياته، ولا شك في أن هناك بعض التشابه، ولكن هناك اختلافات يجب إبرازها والتركيز عليها حتى يتسنى لنا إدراك المغازي والدلالات لهذه الاختلافات. فبعكس شعر المرأة المشرقي الذي طغى عليه غرض الرثاء، نلاحظ أن القطع المحفوظة لحسانة وعائشة تركزان على غرض المديح. والسبب في رأيي هوأن التراث العربي آثر حفظ ما يتلاءم مع الظروف السياسية في الأندلس، وبخاصة النظر إلى هذه الفترة (المرحلة الأولى كما سميتها) على أنها فترة مثالية من الناحية السياسية والثقافية. وهذا يتجلى لنا في تصوير قصة حسانة مع اثنين من مؤسسي الدولة الأموية في الأندلس. أما القطعة والخبر عن عائشة فمليء بمفارقات تدلنا على أن هناك إبرازاً لشخصية وهوية أندلسية أكثر وضوحاً من وقت حسانة، ولكن في الوقت نفسه هنالك نوع من الإنذار بما سيحل بالأندلس بعد انتهاء الفترة الأندلسية، وأن أولي العلم من أمثال عائشة، وهي مصورة في الخبر على أنها ذات أدب وعلم، شعروا وأنذروا بالقادم.

قائمة المصادر والمراجع العربية:

إبن قتيبة. الشعر والشعراء أوطبقات الشعراء. تحقيق: مفيد قميحة ومحمد أمين الضناوي. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥.

ليلى الأخيلية. ديوان ليلى الأخيلية. تحقيق: خليل ابراهيم العطية وجليل العطية. بغداد: دار الجمهورية، ١٩٦٧.

الأصمعي. الأصمعيات. تحقيق أحمد محمود شاكر وعبد السلام محمد هارون. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤.

عبد الرحمن على الحجي. التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة. دمشق: دار القلم، ٢٠١٠.

الخنساء. شرح ديوان الخنساء. تحقيق: عبد السلام الحوفي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.

كمال عبد الرزاق العجيلي. علية بنت المهدي: حياتها وشعرها. بيروت: الدار العربية للموسوعات.

محمد المنتصر الريسوني. الشعر النسوي في الأندلس. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨.

مصطفى الشكعة. الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣.

احسان عباس. تاريخ الأدرب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة. عمان: دار الشروق، ٢٠١١.

احمد بن محمد المقري. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق الدكتور احسان عباس. بيروت: دار صادر، ٢٠١٢.

ياسر الملاح. من الفجر الى الغروب: قصة الادب العربي في الأندلس. القدس: مطبعة الاسراء، ١٩٩٣.

قائمة المراجع بالانجليزية:

Al-Mallah, Majd. In the Shadows of the Master: Al-Mutanabbi's Legacy and the Quest for the Center in Fatimid and Andalusian Poetry. Berkshire: Berkshire Academic Press, ٢٠١٢

Hammond, Marle. Beyond Elegy: Classical Arabic Women's Poetry in Context. Oxford: Oxford University Press, ٢٠١٠.

Hitchcock, Richard. Muslim Spain Reconsidered from ١٥٠٢-٧١١.

Edinburgh: Edinburgh University Press, ٢٠١٤.

Lévi-Provençal, E.; Latham, J.D.; Torres Balbás, L.; G. S. Colin. "al Andalus." Encyclopaedia of Islam, Second Edition. Edited by: P.Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs. Brill Online, ٢٠١٦.

Stetkevych, Suzanne. The Mute Immortals Speak: Pre-Islamic Poetry and the Poetics of Ritual. Ithaca: Cornell University Press, ١٩٩٣.